

## اللغة والتحليل النفسي عند جاك لاكان

الأستاذ الدكتور المصطفى حدية

جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية - أبو ظبي

نشر بالمجلة المغربية لعلم النفس - بتاريخ 2024-10-13

[rpmpsy.com](http://rpmpsy.com)

إن الحديث، عن التحليل النفسي عند جاك لاكان (1901-1981) Jacques Lacan (وخصوصاً عن مميزاته ومكوناته النظرية والمنهجية يجرنا حتماً إلى معاشة الإشكالات والطروحات التي تتجاذب اهتمام مختلف الباحثين اليوم في العلوم الإنسانية. ففي الاتجاه اللكاني تتعايش النظريات اللسانية والأنثروبولوجية والفلسفية وبطبيعة الحال النظريات النفسية بمختلف تياراتها. فمحور اهتمامه أو شعاره الأساسي يتركز على الدعوة المستمرة للعودة إلى فرويد، كما فعل ألتوسير مع ماركس، دعوة تهدف إلى تصحيح ما أخطأ فيه تلامذة فرويد من إغلاق باب الاهتمام باللاشعور بعد أن كان قد فتح مجال البحث فيه بشكل كبير، فهو يعني هنا بالأساس التيار التحليل النفسي psychanalytique الذي تنزعه أنا فرويد Anna-Freud في الولايات المتحدة والذي يجعل من التحليل النفسي مجرد سيكولوجيا تكيفية - واقعية، تركز على الأنا Le moi باعتباره الجانب النفسي الذي يجب تقويته عند الفرد كي يتوافق مع المجتمع. فهذه الدعوة التصحيحية تنطلق من تطبيق النموذج اللساني على معطيات التحليل النفسي، أو بعبارة أخرى، إن هذه الدعوة تعتبر بمثابة قراءة جديدة لنظريات فرويد على ضوء اللسانية البنوية، ولا غرابة إذن فيما إذا رأيناه يقول: "اللاشعور يتكون كلغة ويظهر في ظواهر اللغة."

فلفهم هذا الاستعمال اللساني للسانيات البنيوية في دراسة الحياة النفسية سنحاول في هذه الدراسة التعرض أولاً للتصور اللساني للغة وكيفية استفادة لكان منها، وثانياً سنحاول الوقوف على التصور الخاص لسيرورة النمو النفسي والاجتماعي للفرد من خلال اللغة والرمزية الثقافية.

### تصور جاك لكان للغة وكيفية الاستفادة منها:

إنه إذا كان منذ القديم حتى اليوم الاعتقاد عند بعض الباحثين بأن اللغة هي واقع لا يمكن أن يفصل أثناء الدراسة عن النشاط الذهني والحياة الروحية للإنسان من حيث هو كائن اجتماعي، الأمر الذي يفرض فيما يفرض دراسة اللغة داخل مجموعة من الأسئلة تتعلق بالطبيعة الإنسانية، وتندرج في حقل من البحث يطال أوليات التفكير والعلاقات بين الإنسان والعالم، الخ، فإننا اليوم أصبحنا نلاحظ أن اللغة تدرس في ذاتها ولذاتها كموضوع مستقل غير مختزل في تخصصات أخرى فلسفية ونفسية الخ، ما يهم هو مجال اللغة وليس الأوليات الذهنية التي تتحكم في إنتاج اللغة، هذه النظرة الحديثة للغة تختلف باختلاف المدارس اللسانية وباختلاف الباحثين أنفسهم داخل هذه المدارس.

فاللغة تعتبر مع سوسور Saussure ومدرسة Prague والبنيوية الأمريكية، كنسق من العلاقات أو بدقة أكثر مجموعة من الأنساق المرتبطة فيما بينها، حيث لا قيمة لعناصرها (أصوات، كلمات، الخ)، مفصولة عن علاقات التكافؤ *d'équivalence* والتضاد *opposition* التي تربطهم. فعبارة أخرى تحدد اللسانيات البنيوية موضوعها كوحدة شاملة تتضمن وحدات توجد في نظام خاص يخضع لبعض المبادئ الثابتة، ويعطي للغة وظيفة، كما أن الأجزاء المكونة للوحدة ككل توجد في تراتب بحيث كل وحدة تصبح بمثابة وحدة صغرى لوحدة أكبر. فزيادة على هذا التصور الحديث للغة، نقف مع الألسنيين من جهة على أن الوحدة أو العلامة اللغوية تتكون من وجهتين دال ومدلول *signifiant et signifié* ومن جهة أخرى على مفاهيم القيمة اللغوية *la valeur linguistique* ومحوري الاستبدال والنظم في اللغة واعتباطية الوحدة اللغوية وكذلك على أن الخطاب بنية تراتبية توجد في حالة استقلال بالنسبة للمفاهيم والأفكار بواسطة الأساليب البلاغية كالاستعارة *métaphore* والكناية *la métonymie*.

تبنى لاكان هذا التوجه النظري وصبغه بوجهة نظره كمحلل نفسي، فهو لم يركز على اللغة كموضوع للدراسة كما فعل اللسانيون بل على كلام الفرد la parole، وفي ذلك كله نراه يعترف في محاضرة ألقاها في سنة 1957 في السوربون تحمل عنوان "حكم الحرف في اللاشعور أو العقل منذ فرويد" بفضل الألسنيين سوسور وجاكوبسون اللذين أسسا عصر اللسانية الحديث على اعتبار أن الأول قد حدد الوحدة اللغوية كجوهر ذي وجهين: الدال والمدلول؛ ولأن الآخر قد ميز العملتين الأساسيتين للكلام: انتقاء الوحدات اللغوية وتنسيقها – مما يستتبع مفاهيم المحور الكبيرين للغة وهما: المحور الاستبدالي والمحور النظمي.

تأكد لاكان من أن التركيب الأساسي للغة في الحساب (Algorithme) السوسوري الدال Signifiant المدلول Signifié

(الدال على المدلول) مما دفعه إلى القول بـ "أن موضوع علم اللسانية يتعلق منذ ذلك الحين بالوضعية الأساسية للدال والمدلول كنظامين متميزين ومنفصلين أصلاً بحاجز يقاوم الدلالة، وهذا ما يفسح المجال أمام دراسة صحيحة للعلاقات الخاصة بالدال ولوظيفته الشاملة في تكوين المدلول" (479 - 1966).

هكذا، إن ما يلفت انتباه "لاكان" في الحساب عند سوسور ليس علاقة المدلول بالدال التي يتحدد بها "المعنى"، بل على العكس: الحاجز الفاصل "المقاوم للمعنى" الذي يبين الدال والمدلول كنظامين متميزين ومنفصلين.

فالعلاقة المباشرة بين الدال والمدلول، أي "المعنى" بمعناه الضيق، هو في نظر لاكان وهم يجب التخلص منه لفهم تركيب اللغة: يقول: "سنفشل في دعم السؤال عن طبيعة اللغة طالما أننا لم نتخلص من الوهم القائل بأن وظيفة الدال تكمن في أنه يمثل المدلول أو بالأحرى أن الدال لا يوجد إلا بناء على معنى معين" (498 - 1966)

لذلك يتبنى لاكان مفهوم: القيمة اللغوية valeur linguistique عند سوسور، حيث يصرح "لا يوجد أي معنى متماسك إلا بالرجوع إلى معنى آخر" (1966-467) ويضيف قائلاً: "يتأكد

المعنى في سلسلة الدال. ولكن أي عنصر من عناصر هذه السلسلة لا يشمل على المعنى " (502 - 1966).

فانطلاقاً من هذا التصور اللساني يؤكد لاكان بأن "اللاشعور مبنى كبناء اللغة" أي أن اللاشعور ليس كما يحدده السيكلوجيون بأنه مقر النزوات والغرائز، فلا كان يبين بأن فرويد لم يقل ذلك أبداً، بل يوضح بأن اللاشعور هو بنية في حد ذاتها، لها تركيبية شبيهة بتركيبية اللغة. يبين لاكان كذلك أن المحللين لم يدركوا منذ البداية المعنى الذي خص به فرويد اللاشعور، من كونه لغة، يخضع لنفس القاعدة والأسلوب، أي الاستعارة) بمثابة التكثيف (La condensation والكناية) (le déplacement) فالنقل يعمل لتفادي المراقبة ومغافلتها بينما التكثيف فهو للتعبير العميق عن الرغبة المكبوتة.

فمن جهة أخرى إذا كان اللسانيون قد ركزوا على أفضلية الوحدة أو العلامة اللغوية واستبداديتها في توالد المعاني، فإن لاكان يختلف معهم في ذلك بحيث يعتبر أن الأسبقية يجب أن تعطى للدال من حيث ارتباطه وتشابكه بسلسلة الدلالات التي تكوّن الذات. فللدال حق التصدر على المدلول، فهو مفصول عنه بحاجز لا يمكن لأي معنى أن يخترقه: فالدال والمدلول جهازان لا يمكن أن يتضمن أحدهما الآخر. فالمعاني غير محصورة في دال معين بل يمكن الحصول عليها من عملية الرجوع والارتداد إلى دال آخر وهكذا.

ولهذا يؤكد لاكان- كما سنرى فيما بعد – أن للدال الأفضلية في تعيين الذات والتعريف بها، من حيث أنها متنقلة في السلسلة الدلالية، فهي حسب تعريفه ما يمثله الدال بالنسبة إلى دال آخر.

تلك بإيجاز أهم المعطيات اللسانية وموقف لاكان من استعمالها في مجال التحليل النفسي. تبدو في اعتقادنا غير واضحة بما فيه الكفاية ولذا سنعمل فيما يلي على توضيح معالمها التطبيقية من خلال التصور اللكاني لسيرورة النمو النفسي عند الفرد.

### سيرورة النمو النفسي عند الفرد:

فلتفسير ما سبق وتوضيحه نتساءل في إطار التحليل النفسي اللكاني عن ما هو اللاشعور وكيف يكون وما هو مضمونه وما هي علاقته بهوية الفرد وبأنه وما هو السبيل إلى الوقوف على

تحليله، وما هي في الأخير العلاقة بين اللاشعور واللغة والرمزية عموما في تكوين الهوية الشخصية. هذه التساؤلات المهمة، سوف لا نجيب عنها تباعا، بل سيتضح مضمونها من خلال عرضنا للنمو النفسي للفرد فيما يلي:

فزيادة على اللسانيات البنيوية اعتمد جاك لاكان في تصوره للسيرورة النمائية للفرد على بنويوية لفي ستر اوس. فالبنسبة لهذه الأخيرة ركز بالأساس على الفكرة الرئيسية القائلة بأن النسق أو النظام الرمزي l'ordre symbolique، يبنى structure الواقع البين – إنساني La réalité interhumaine.

يمكن رصد التصور اللكاني للسيرورة النمائية للفرد منذ طفولته عبر اللغة في ثلاث مراحل كما يلي:

المرحلة الأولى: ترتبط بالعلاقة الثنائية بين الطفل وأمه. فالطفل كما يوضح لاكان لا يرغب فقط في التواجد بجانب الأم ومعها بل يرغب في أن يكون كل شيء بالنسبة إليها، فهو يريد أن يكيف حياتها حسب رغبته، يرغب لاشعوريا أن يكون المكمل le complément لما ينقص الأم أي بمثابة عضو التذكير le phallus وبما أن هذا الأخير هو الذي ينقص الأم بالطبيعة فإنه يتوحد به ويصبح كذلك.

ومما يترتب عن هذا الوضع، هو أن الطفل بتوحده بهذا العضو الذي هو موضوع رغبة الآخر، يصبح خاضعا تابعا وليس بفرد متفرد، إنه مجرد نقص un manque، غير مميز عن موضوع رغبة الآخر، فهو غير محدد داخل شبكة العلاقات التبادلية، إنه في وحدة كاملة مع الأم، مع رغبته، إنه في التخيلي L'imaginaire، تحت تأثير الرغبة النرجسية الأولى. هذه المرحلة ترتبط بما سماه لاكان بمرحلة المرأة le stade du miroir فهي مرحلة يغلب عليها الطابع التصوري المحض والتخيل والوهم لتكون بذلك بداية لوضع الحجر الأساسي لمكونات الأنا الذي يخاطب به الآخر. فالطفل لا يرى في الآخر أو في صورة المرأة أو في أمه إلا شبيهه، ولا يميزه عن ذاته، وهذا شيء بديهي لمن يراقب الأطفال ما بين الشهر الثامن والثامن عشر. فالطفل عندما يلتقي بصورته في المرأة يشعر بنشوة كبيرة وربما بالغرابة فيصبح مأخوذا بها

يشير إليها كطرف ثالث، فتصبح المثل المتكامل الذي يتطلع إليه، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار الواقع المأساوي الذي يتخبط فيه في هذه السن نظراً لعدم اكتمال نموه، فهو يعيش في حالة تجزؤ جسدي. فهذه الصورة تأتي لكي تحقق بتكاملها ما كان ينقصه ويتجاذبه في واقعه. فنضج نظره يجعل هذه الصورة سابقة لمثال متكامل يسبق وحدته الفعلية ونضجه الجسدي والعصبي والذي سيظل كنموذج ومثال يتطلع لتحقيقه طيلة حياته، على اعتبار أنه النواة المكونة للأنثى المثالي.

ينتج عن هذا الفارق ما بين الصورة المتكاملة الموحدة والموقع الجسدي المجزأ عمليتان مهمتان، الأولى: يميز الطفل في هذه الصورة وجوده ككائن يتحدد بالنسبة للآخر والثانية: أنها تفتح أمامه باب التوحد والتقصص، أي التوحد بالآخرين حيث من هذه الخطوة الأولى تتكون الأنثى في آخر المطاف من مجموعة من التوحدات التصورية والتخيلية.

فمن الناحية المرضية، الطفل الذي لا يخرج من هذه العلاقة الثنائية يصبح فيما بعد ذهانيا psychotique. وبطبيعة الحال الحديث عن الخروج من هذه العلاقة يجرنا إلى المرحلة الثانية من النمو النفسي للطفل، هذه المرحلة التي تتزامن مع ظهور اللغة في التخاطب ومع معايشة دراما الأوديب.

المرحلة الثانية: إنها تبدأ بتدخل الأب كحامل للسلطة المجتمعة، في العمل على منعه من الاستمرار في تلك العلاقة الثنائية والتوحيدية مع رغبة الأم، وذلك في اتجاهين: أولاً فهو يحرم الطفل من رغبته كموضوع لرغبة الأم ويحرم الأم من رغبته التي تأخذ الطفل كعضو تذكيري. فالطفل يصطدم بقانون الأب la loi du père ، يصطدم بالمنع والتحریم l'interdit الذي يعتبر أساس النظام الرمزي. فالطفل يتصدع ويزلزل كيانه بمعايشته لهذا الموقف ولعل هذا ما سيمهد لظهور المرحلة الثالثة من النمو النفسي التي تتلخص في كون الطفل يتوحد بالأب ويحدد بذلك فرديته Son individualité وشخصيته، وذلك شريطة أن تكون الأم معترفة بالأب كحامل وممثل للقانون وليس فقط كمولد على المستوى البيولوجي. فهذا الاعتراف هو الذي سيحمل الطفل على ولوج "اسم الأب" أو "الاستعارة الأبوية". فالطفل يتوحد بالأب كحامل لعضو التذكير الذي ينقصه والذي يعتبر نفسه ممثلاً بالنسبة لأمه. فالأب يركز وجود العضو

التذكيري كموضوع لرغبة الأم مستقلا عن الطفل، بحيث يصبح هذا الأخير فردا مستقلا وليس موضوع رغبة للأم.

فعمل الأب هذا يخصي الطفل le Castre كموجود عضو تذكير. Etre-phallus إن هذا هو الثمن الذي يتوجب على الطفل دفعه كي يلج عالم اللغة، والرمز والثقافة والحضارة. فحل المشكل الأوديبى هذا يحرره من جهة ويقتله من جهة أخرى، يحرره بإخراجه من اللاوجود وإعطائه فردا معينا داخل الأسرة وتكوينه لذات تدفعه إلى التحقق في العالم اللغوي، الرمزي والثقافي الخ.

فالطفل المخصي أي المبعد عن أمه بواسطة قانون الأب سيتخلى عن رغبته المطلقة والجامحة ويتحمل نقصه. فرغبته الحقيقية ستصبح لا شعورية أي ستكبت ولعل هذا ما يسمى بالكبت الأولي le refoulement originaire والذي يمهد للدخول في عالم اللغة، عالم الدال، عالم الرمز، هذا الدخول الذي يتم باستبدال الرغبة الحقيقية برمز وقانون الخ. هذا يعني أنه سيتم انشطار الذات إلى وجود وعي شعوري Etre de conscience ، وآخر لا واعي Etre d'inconscience ، ويعني كذلك أن النقص في الوجود الذي تم وجوده بسبب ضغط قانون الأب سيجعل الرغبة الأصلية تأخذ مسار التنقل والانتقال عبر الدلالات بكيفية استعارية ومجازية فيما يسميه لاكان بالطلب la demande أي البحث عن إشباع، وذلك بطبيعة الحال فيما يرضى عنه المجتمع.

فيما سبق يتضح أن اللغة أو الرمز هو الذي يؤنس Humanise الفرد ويعطيه ذاته، وذلك بإخراجه من اللاوجود، من عالم التخيل، من العلاقة الثنائية التي لا يعتبر فيها إلا مجرد مكمل ومجرد رغبة أو كما يقول لاكان "ذلك لأن سبب الشخص هو الدال الذي بدونه لا يوجد أي شخص في الواقع. ولكن هذا الأخير ليس إلا ما يمثله الدال ولا يمكن أن يمثل إلا لأجل دال آخر" (1966-853) "فالشخص هو نتيجة للغة". بعبارة أخرى إن الطفل يعتمد وسيطا في العلاقة الثانية أي باعتماده الكلام يسبق طريقه إلى المنفي والاعتراب وذلك عبر التوحدات المختلفة ومثالات الأنا المتعددة، وهذا هو المسار الحتمي للفرد، مسار لا عودة فيه. هكذا إذن

يتبين معنى الشخص ويختفي عن نفسه عبر أحاديث وتجارب مسترسلة أي – سلسلة الدلالات- حول ذاته والعالم، ويصبح تابعا للدال وممثلا به أي يعيش على الخيالي المرمز.

ذلك هو التصور اللكاني للنمو النفسي للفرد ولتكوين الذات الفردية، أي الهوية، والذي يمكننا أن نجمله في الخلاصات التالية:

### خلاصات حول نظرية جاك لاكان:

1 - اللاشعور مبني كبناء اللغة: هذه هي الأطروحة الرئيسية للاكان، تعتمد على التسليم بإمكانية الوقوف على الحياة النفسية للفرد المكبوت منها والمنسي، وذلك في استقلال عن إرادة الفرد وعن شعوره وهذا يتم بواسطة خصائص اللغة من كناية واستعارة الخ...

2 - اللاشعور هو لغة الآخر الكبير: فاللاشعور يظهر إطلاقا بأنه آخر بالنسبة للأنا (je) ، وللشعور، والذاتية. la subjectivité. فاللاشعور هو آخر Autre قادر على الكلام أي للتمظهر في شكل خطابي مبنين forme discursive structurée. إنه ذلك الذي يوجد داخل الفرد بدون علم منه، مكون "من طرف الآخر l'Autre: أي الثقافة واللغة".

3 - الواقع le réel المتخيل – l'imaginaire الرمزي: le symbolique فهذه المفاهيم الثلاثة تعكس الأطروحة الفرويدية الهو – الأنا، الأنا الأعلى وهي مرتبطة بالأطروحة السابقة.

4 - الدال le signifiant: هو ما به يوجد الرمزي le symbolique ممثلا بشكل موضوعي. فهو قسم من الكلام لا معنى له، فمعناه أي المدلول مكبوت، لا يظهر إلا بشكل غير مباشر من خلال لعبة السلسلة الدلالية.

5 - le sujet désubjectivé أي الفرد (المنعدم) للذات: أي الفرد الذي يحتويه النظام الفرد، الذي يمثله الدال بالنسبة لدال آخر، بمعنى أنه مجرد رابط بين الدلالات، بين دال ومدلول، بين الواقع والمتخيل والرمزي. هذا الفرد غير مكثفي بذاته، إنه مجرد نتاج لعدة عوامل تحددته: أي "الآخر L'Autre"، الرمزي، الدال.



كل هذا النسق من المفاهيم المترابطة بتعريفات دائرية توجد مجتمعة ككل في إطار اللغة. فاللاشعور يتمظهر "ككلام الآخر"، كنسق رمزي، كلعبة دلالية، لا يتجلى إلا في اللغة.

وفي الأخير نقول إن لاكان بعمله هذا عمل على تحرير التحليل النفسي من إطار البيولوجي الضيق وسما به إلى مستوى الرمزي، كما عمل ما في وسعه كي يبني سيكولوجيا علمية تتصف بالموافاة العلمية التي تتحلى بها اللسانيات. إننا نعتقد أنه رغم هذا الهم، قد حصر ونوب موضوع السيكولوجيا في اللغة وجعل التحليل يسير بكيفية ارتدادية من دال إلى مدلول آخر عبر سلسلة الدلالات، كما تناسى الأخذ بعين الاعتبار للعلائق التفاعلية الآنية التي يتواجد فيها الفرد والتي لا يمثل فيها إلا طرفا خاصا، كما تناسى كذلك عمل مؤثرات المجال الاجتماعي المختلفة، عندما قال بأن الذات هي نتيجة للغة .

## المراجع

*Chazaud (j), Tendances nouvelles de la psychanalyse, Edition du centurion 1978, 151. Pages.*

*Fedida (P), Dictionnaire de la psychanalyse. Paris, Librairie Larousse, 1974.*

*Freud (S), Métapsychologie. Paris, Ed. Gallimard col Idées, 1940, 187 Pages.*

*Freud (S), Introduction à la psychanalyse, Paris, P.b.P ? 1950, 443 Pages.*

*Freud (S), Cinq leçons de psychanalyse Paris, P.b.P., 1975, 157 Pages.*

*Freud (S), Inhibition, Symptôme et Angroisse. Paris, P.U.F, 1968, 102 Pages.*

*Lacan (J), Les Ecris, éd Seuil, 1966.*

*Lagache (D), La psychanalyse. Paris, P.U.F., col que sais-je ? 1976 ; 128. Page.*